تولستوى

الكتاب ترجمة لحياة «تولستوى» كتبها المرحوم الأستاذ محمود الخفيف سنة ١٩٤٨ فى تصوير حى طوّاف فى أرجاء شخصية غنية بالانسانيات والمواقف. شخصية عجيبة تجمع فى إهابها رجلا يحمل لقب «الكونت» وفى الوقت نفسه يتخذ مثله العليا من حياة الجماهير.. وهو أبيقورى ينقلب إلى زاهد مصلح.. رجل هو مفكر فيلسوف، وشاعر واسع الخيال، ومؤمن مبشر، ومتشكك منكر.. رجل أرستقراطى متعال وفلاح مسكين وهى الصفة الأخيرة التى مات عليها فهذا الكونت العظيم الثراء الذى بلغ فى قومه مكانة لم يتعلق بها وهم أديب قبله.. وبلغ فى العالم منزلة لم يتبوأ مثلها إلا الأفذاذ والقلائل، هرب من بيته فى الثانية والثمانين من عمره ليقضى أيامه الأخيرة فى عزلة وفى فاقة فلاح مسكين.

لقد بدا له بعد أن ذاع صيته فى الأدب، أن ينقطع عن الكتابة وهو يناهز الخمسين من سنيه، ليتفرغ للتفكير فى الدين الأمر الذى أزعج الكاتب الكبير «ترجنيف» فكتب إليه وهو يدنو من الموت، يقول: (ياشاعرنا العظيم، يالسان هذه الأرض، أرضنا الروسية، عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية. اسمع توسل رجل يموت).

أُشرب تولستوى طفلاحب الناس والمخلوقات من كل ذى روح بل الأشياء.. وفصل (صبى نابه) مملوء بشيق القصص فى هذا الصدد.

نعم تولستوى بطفولة هانئة صورها فى كتابه (عهد الطفولة) بقوله (ما أسعد هاتيك الأيام الحلوة، أيام الطفولة التى لا تنمحى ذكراها، وكيف ينسى امرؤ أن يحب ذكرياتها وأن ينعم بها، إن هذه الذكريات لتنعش روحى وتسمو بها... وهى المنبع الأعظم فيض من السرور يغمرنى، وأى وقت هو خير من ذلك الوقت الذى لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما فى الفضائل أجمل فضيلتين: اللهو البرىء، ورغبة النفس فى الحب رغبة لا تحد).

والطفولة السعيدة حظ كثير من الأطفال كما أن البؤس قدر آخرين.. ولكن الغريب الذى يقع فى حكم الندرة، أن يعرف تولستوى، طفلا فى الثامنة من عمره، الحب الذى يحسه الفتيان

والشباب او يميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة فى مثل هذه السن الباكرة دليلا على الموهبة الفنية.

أحب تولستوى (الطفل) بنتا صغيرة كانت تعيش فى كنف أسرته تسمى «اسلنيف». وكان يغار عليها أشد ما تكون الغيرة حتى أنه دفعها ذات مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد بلغت بها الجرأة أن كلمت غلاما أمامه، فسقطت ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين.

ومن الطريف أنه بعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج تولستوى ابنة هذه (الحبيبة) الصغيرة التى غدت سيدة وأما لبنين وبنات إحداهن زوجته. وهنا قالت له ضاحكة وهى تذكره بحادث الشرفة (أكبر الظن أنك دفعتنى من الشرفة أبان طفولتى لكى تتزوج بابنتى فيما بعد).

ومن غرائب أطواره، طفلا، أنه فكر ذات يوم: (لم لا يطير كما تفعل الطير؟ لم لا يجرب؟) وهنا يشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها فى سبات عميق، فيفتح عينيه دهشا متحيرا يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره إياه ما يحس من ألم فى مفاصله وأضلاعه.

يقول المؤلف: (لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أراد أن يلتحق بجامعة قازان، واختار قسم اللغات الشرقية إذ كانت بغيته أن يكون فى غده من رجال السياسة، وكان لابد لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحان فى اللغات العربية والتتارية والتركية، مضافا إليها بعض اللغات الغربية وبعض فروع المعرفة العامة).

وهنا أحس بينى وبين تولستوى رابطة أخرى بالإضافة رلى رابطة الأدب فقد تخصصت التخصص نفسه فى الجامعة مع استبدال الفارسية بالتتارية

درس تولستوى بعد هذا القانون والموسيقى، وانخرط فى سلك الجندية وتشعبت به السبل ولكنه لم ينقطع عن القراءة مهما شغلته الشواغل فقرأ «رسو» و «ديكنز» وأكبرهما وأقبل على «بوشكين » و «جوجول» إقبالاً شديداً وكان لجوجول تأثير قوى فى خياله وعقله كما تأثر بالكاتب الروسى «ترجنيف» فى كتابه «مذكرات رجل صيد» الذى وصف فيه حياة رقيق الأرض.

قرأ تولستوى كتب «شلر» وكتب «ستيرن» وغيرهما من فحول القصة والشعر.. لم يفته كتاب مما كان يصدر يومذاك فى روسيا أو أوربا كذلك لم تفته صحيفة أدبية تعنى بألوان الأدب المعاصر فى أيامه.

قرأ تولستوى آثار أعلام الأدب الأوربى. قرأ من آثار «جوته» آلام فرتر وهرمن وولايته وقرأ لفكتور هوجو، نوتردام دى بارى، ولهومر الألياذة والأوديسه ولدكنز دورت الصغيرة ويكوك، ولثكرى نيوكمز، ولموليير بعض مسرحياته، ولشكسبير الملك كما قرأ بعض كتب أفلاطون من الأقدمين.

وقرأ جونشاروف واستروفسكى وكان هذا الأخير أشهر كتاب الدراما الروسيين، وتايشوف، وفت.

وإنه لدرس لناشئة الأدب الذين يتعجلون الظهور والنشر قبل استكمال العدة.

وقد عانى تولستوى، كسائر الكتاب، من الرقابة. وقد واجه هذا فى قصته (الغاره) وقد أرسلها إلى مجلة (المعاصر) ولكن الرقيب شوه بعض أجزاء هذه الأقصوصة حتى لقد اشتكى بقوله (لقد قضى عليها الرقيب إذ محا كل ما كان حسنا أو بدله).

وعلى الرغم من إعجاب القيصر نفسه بما كتب تولتستوى لم ينج من عنت الرقيب ومضايقاته فى نفسه وفى أنفس عزيزة عليه وإن تولستوى ليذكر ما لحق غيره من أذى الرقابة، فيزداد لها كرها ومقتا، فقد أصاب بوشكين من قبل غير قليل من المهانة، وأرغم جوجول على ان ينكر بنفسه بعض آرائه ونفى دستويفسكى وليرمنتوف وهيرزن وسالتيكوف وقبض على ترجنيف لأنه طبع مقالة عن جوجول

ويتسم أدب تولستوى بالصدق الذى أولع به حتى ليقول فى ختام قصته (سبا ستبول فى مايو) (إن بطل أقصوصتى ذلك الذى أحبه بكل ما فى روحى من قوة. والذى حاولت أن أصوره فى أكمل جمال.. ذلك الذى كان جميلا والذى أراه جميلا والذى سوف يبقى جميلا.. إنما هو الصدق).

وكما أحب «عنتر» حصانه وناجاه واقترب منه أحب تولستوى الحصان إلى الحد الذى قرر معه أن يكتب قصة، عنه سار يوما مع ترجنيف فلما عاد من نزهته، كتب يقول: (.. كان بيننا حديث بهيج جدا.. أحب أن أكتب قصة موضوعها حصان).

وكان قد وقع بصره وصاحبه على حصان كبير يرعى فنظر إليه تولستوى ثم أخذ يصف لصاحبه ما عسى أن يكون شعور الحصان ساعتئذ، وفعل ذلك فى صورة جعلت ترجنيف يقول متعجبا: (إنى لعلى يقين ياليونيكو لافتش أنك نفسك لابد كنت حصانا ذات يوم).

***

التقى تولستوى أثناء رحلته إلى أوروبا بإحدى قريباته فى جنيف وهى الكونتس الكسندرا.. وكانت تكبره بإحدى عشرة سنة فكان يقول لها مازحا إنها أصغر سنا من أن يدعوها عمته وعلى ذلك فهو يسميها جدته.

وقضى تولستوى معها أياما فى جنيف كانت عنده من أسعد أيام حياته وكثيرا ما جلسا على شاطىء البحيرة أو صعدا الجبال القريبة، فعزف تولستوى لحنا وغنت الكسندرا.

ويحكى المؤلف أنه ظل على إعجابه بها طيلة حياته على الرغم من اختلافهما فيما بعد اختلافا كبيرا فيما يتصل بالدين من رأى. قال تولستوى لبعض أصحابه قبيل وفاته وقد نظر، نظرة فيما كان بينه وبينها من رسائل (إن ذكرياتى عن الكسندرا ظلت فى حياتى المظلمة الطويلة بقعة وضيئة تشبه الضوء الذى يلتمع من تحت الباب فى نهاية غرفة مظلمة).

ورحل تولستوى إلى أوربا مرة ثانية سنة ١٨٦٠ وهو حين يقوم برحلة، يملؤها درسا وعملا وتعلما وعلما ففى هذه الرحلة حاول أن يقف على نظم التعليم فى المانيا كما حضر بعض المحاضرات فى جامعة برلين وشهد الدراسات الليلية للعمال وزار بعض السجون حيث أدخل نظام الحبس الانفرادى.. وزار بعض المدارس فى لينرج فكانت فى رأيه (شيئا مخيفا حيث الدعاء للقيصر والضرب بالسياط وحفظ كل شىء عن ظهر قلب، وحيث يُخوّف التلاميذ وتُشتت أذهانهم).

وتوجه إلى كسنجن وفى هذه الأثناء قرأ بعض كتب بيكون ولوثر، وتعرف إلى جولياس فروبيل أحد المشتغلين بشئون التربية على غرار عمه مبتكر رياض الأطفال.

ومع هذا الجد كله، كان تولستوى يحب الدعابة ففى درسدن زار القصصى أورباخ وقدم نفسه إليه باسم أحد شخصيات قصصه.. وأوجس المؤلف خوفا أول الأمر ثم ما لبث أن فطن إلى ما فى ذلك من مزاح.

بل إن الدعـاية لم تفارق تولستـوى حتى فى الموقف الرهيب الـذى تغيم فـيه الرؤية وتغيب المرئيات والجماليات وتضيع الكلمات.

فقد وقع لتولستوى حادث كاد يودى بحياته، فقد خرج مع رفقة لصيد الدب فى الغابة وكان فيهم أوستاسكوف أحد مهرة الصيادين، وأشار أصحابه عليه والبندقية فى يده أن يمهد الثلج من حوله ليتحرك فى يسر، ولكنه كما يحكى المؤلف لم يعبأ بما أشاروا به قائلا وهو يضحك إنهم إنما جاءوا ليقتلوا الدب لا ليصارعوه بالملاكمة. وجاء دب فأطلق عليه الرصاص فأخطأ أول مرة ثم أصابه بجرح خفيف فى المرة الثانية، ولم يكد يصوب إليه البندقية مرة ثالثة حتى وثب عليه فضربه ضربة أكبته على وجهه فى الثلج، وحاول جهده أن يخفى عنقه بين كتفيه كى لا يعضه الدب إلا فى غطاء رأسه الصوفى السميك.

نستمع إلى وصف تولستوى وهو فى مقام الروع:

(لم أشعر بألم وأنا طريح تحت الدب أنظر إلى فمه الدافىء ذى الأسنان البيضاء، المنداة، وتنفس فوق رأسى، ورأيت كيف أدار رأسه ليصبح فى وضع يعض منه عاتقى فى سرعة، ورأيته فى سرعته أو فى نهمه يعض عضة فى الهواء فوق رأسى مباشرة ثم فتح فمه ثانية، ذلك الفم الأحمر المبلل الجائع الذى يتحلب لعابه، وأحسست أنه بينى وبين الموت لحظة ونظرت فى أعماق ذلك الفم كما ينظر المحكوم عليه بالموت فى القبر الذى احتفر له.. نظرت وأذكر أنى لم أحس خوفا ولا هلعا.. ورأيت بأحد عينى من وراء هذا الفم قطعة من زرقة السماء تلمع بين السحب الحمراء قد توشجت فى صورة شوهاء.. وخطرت على فكرى روعة هذه الزرقة هناك فى علبائها).

ويبدو أن الدب لم يعبأ بهذه الخطرات فقد انقض على تولستوى وعضه، عضة قوية مزقت خده تحت عينه اليسرى والجانب الأيمن من جبهته، وأوشك أن يعضه عضة ثانية لولا أن قدم أوستاسكوف فأفزعه فهرب.

واستقر هذا الحادث فى نفس تولستوى ورسب فى أعماقه حتى انعكس فى قصته الكبرى (الحرب والسلام) فى وصفه لأحد أبطال القصة، البرنس أندرو كيف واجه الموت حين سقط جريحا فى ساحة المعركة.. فكان الصدق فى التصوير أحد أسباب روعته وتأثيره.

كان تولستوى يحب الطبيعة فهى موحيته وهى طبيبه فى الوقت نفسه. قاسى مرة ألما شديدا فى أسنانه مدة ستة أسابيع وهو يرفض أن يزور الطبيب لأنه يحب أن يرد الأمر فى الصحة والمرض إلى الطبيعة فكما أصابته الطبيعة بالمرض فهى التى تذهب الألم عنه.

وكما عشق تولستوى الطبيعة، عشق الحرية فلما عاد من رحلاته واستقر فى وطنه بنى مدرسة وجعلها ثلاث حجرات كبيرة، وجعل إحداها متحفا للنبات والحيوان وأنواع الصخر وأدوات العلوم الطبيعية! وكان بها ثلاثة معلمين هو أحدهم، وقسيس كان يزورها مرتين فى الأسبوع.

وكان أكثر ما يتلقى التلاميذ دروسهم فى الحديقة حيث يتحلقون حول شجرات التفاح، أمام معلمهم..

وكان التلاميذ يتعلمون اللغة والدين والرسم والعلوم الطبيعية والرياضة والنبات والحيوان والموسيقى والأناشيد.

وجعل تولستوى أساس خطته أن يشعر التلاميذ باللذة فى كسب المعرفة، فأحاطهم بكثير من الحرية فهم يجلسون حيث يشاءون، وهم يستمرون فى الدرس إذا أعجبهم دون التقيد بزمن حتى ينصرفوا عند من تلقاء أنفسهم، وهم يظهرون معلمهم على ما يعجبهم وما لا يعجبهم، ولن يؤنب تلميذ على تأخره عن الميعاد، وقليلا ما كان يتأخر إلا الكبار الذين يضطرون إلى معاونة آبائهم فى بعض أعمالهم ثم يأتون سراعا إلى المدرسة، ولا يكلف التلاميذ بأعمال فى منازلهم أو يطلب إليهم إحضار دفاتر أو كتب معينة معهم (وإذا جاءوا قبل المعلم تركوا فى زياطهم ولعبهم لا يلزمون بشىء مما تسميه المدارس بالنظام، فما يطلب منهم إلا النظافة والانتباه والصدق فى القول، وكان يوجه كل غلام الوجهة التى يميل إليها لتمد موهبته أقصى مدها، ولا يحمل أحد قط على غير ما يحب.

وأحب التلاميذ معلميهم حبا قويا وبخاصة تولستوى، فقد كان فى غير أوقات الدروس يلاعبهم ويضاحكهم.. يصحبهم إلى الغابة ويسابقهم فى العدو، وإنه ليرى أثناء ذلك كيف تشكل عواطفهم وكيف تتفتح نفوسهم للحياة.

واستطاع تولستوى أن يحدث أثرا عميقا فى نفوس تلاميذه.. فإذا أخذوا فى حديث معه أو إذا ألقى عليهم درسا لم يحبوا أن ينصرفوا، بل إنهم ليريدون أن يبقى بينهم مهما استطال الزمن، ولقد نهاهم أن ينادوه بألقاب التعظيم قائلا لهم «إن اسمى هو: ليونيقولافتش».

وقف المؤلف فى هذا الكتاب، طويلا عند رائعة تولستوى (الحرب والسلام) يحللها ثم أعاد الوقفة نفسها عند قصة تولستوى (أنا كارنينا).

ولما كانت رواية (الحرب والسلام)، هى قصة الشعب الروسى أثناء حرب نابليون من ١٨٠٥-١٨٥١ فإن المؤلف يقول فيها:

(فى هذا العمل الفنى روح الملحمة، فهى فى مجموعها قصيدة كبرى.. هى إلياذة حديثة، وذلك من حيث بنائها ووقعها فى النفس، وإنك لتستشعر روح هوميروس إذ ينتقل بك الكاتب فى غير جلبة ولا صخب من مشهد إلى مشهد فيريك ما يفعل القدر بالأفراد مرة، وما يفعل الجيش مرة، ولما كانت تصور ذلك الكفاح الوطنى الذى نهض به الشعب الروسى فى وجه نابليون، فقد أبرز ذلك فيها روح الملحمة، وإن أكثر فصولها لتترك فى النفس نغمة عامة أشبه بنغمة النشيد، ولا يسع المرء فى أكثر الأحيان إلا أن يقول عن كاتبها، هذا شاعر وإن لم يصطنع الشعر، وكثيرا ما يذكر المرء نظرة جيته حين يلمس بعبقريته المشاهد المألوفة فكأن القارىء يرى فيها ما لم يره من قبل).

لا تقاوم الشر بالعنف:

فى هذه العبارة فلسفة تولستوى الأخلاقية، وبها قذف على المدينة الحديثة، والدولة الحديثة، فزعزع أساسهما. فتولستوى أول من تحدى القيصرية فى عنفوان قوتها، وهو أول من تحدى الكنيسة فى أوج سلطتها، وهو أول من زعزع الملكية فى وقت كان لا يطمع فيه غيره إلا فى شىء من الإصلاح..

هذا الرجل هو أول من بث الشجاعة فى نفوس الناس فى وقت كان الهمس فيه مما تخشى عواقبه، يقول المؤلف:

لئن كان جان جاك روسو أبا للثورة الفرنسية فإن تولستوى أب للثورة الروسية العالمية.

ولم تنطفىء شعلته بعد موته فهذا غاندى الشهيد وإن لم يكن مسيحيا، قد أخذ سياسته فى كفاحه عن تولستوى.. وما كان أسلوبه فى عدم المقاومة، وما بثه فى نفوس أتباعه من موقف سلبى فى وجه السلطة، وما كان فى عزوفه عن الترف، وما كان اعتزاله الصناعة الحديثة، وأخذه بمبدأ

العمل في البيت، وما كان استغناؤه أو استقلاله السياسي، بإقلاله من مطالب الحياة. وما كان ذلك جميعا إلا مستمدا من أستاذه المسيحي.

وتولستوى الذى كره العنف وأحب الحب، كره شيئين:

١ - ايلام زوجته له ثم

٢ - تفكره فى شيخوخته

ولم يكن هذا الألم خوفا من الموت وإن كان شديد التعلق بالحياة،

ولكنه خشية ألا يتسع ما بقى من عمره لما يريد أن يكتب مما يجول فى خاطره من معان فى الفن وفى غير الفن، وكان كذلك يؤلمه ما يحس من وحشة وقد مات بعض أصدقائه ونفى البعض وتزوجت ابنته مارى، وخطبت ناتنيا، وعما قريب تذهب إلى زوجها.

هنا لاذ تولستوى بالفن وكان لواذا خصبا كتب ما بين ١٧٩٥-١٨٩٩ كتابا طويلا فى الفن ما هو وما غايته، وقصة هى ثالثة قصصه الطويلة، وإن كانت لا تزيد حجما عن نصف «أنا كارنينا» وتلك هى قصته «العبث». ثم كتب قصتين أخريين هما: (السيد والتابع) و «الأب سرجيوس» ولم تنشر الثانية إلا بعد موته..

يضاف إلى هذه مقالات كثيرة فى أمور شتى، كمقدمة لقصص موباسان، وبعض آرائه فى الدين، والوطنية والسلام، وكيف يقرأ الانجيل، وغيرها من الدراسات القصيرة.

حتى فى المرض كان تولستوى يتشوف إلى الكتابة، ويتشوق إلى التأليف فما يكاد يبلى من مرضه حتى يعود إليها.. إلى الأدب ليظل أعظم كتاب القرن التاسع عشر، عملاق القرن العشرين بقصته (الحاج مراد) التى بدأها سنة ١٨٩٦ وأتمها سنة ١٩٠٤.. كما كتب مسرحيته (الجثة الحية) وأخرى سماها (النور يضيء فى الظلام).

ولكن قصة (الحاج مراد) تصف جهاد المسلمين فى القوقاز للتخلص من الروس. ولذلك حفلت بالأسماء العربية التى كتبها تولستوى بالروسية حسب نطقها مثل المرشد- المريدين- الإمام- الغزوات- الشريعة- الطريقة-.

ومن الأسماء الحاج مراد -جميل بك- محمد- حمزة. حتى البطولة فى هذه القصة، عقدها للنجدة وانكار الذات فى سبيل العقيدة.

واستجاب الشعب لتولستوى، والشعوب بحاسة فيها تعرف من يصدقونها فالتف حوله آلاف الطلاب يرون فى كتاباته دعوة للانطلاق من القيود.

وكانت صورة تولستوى التى رسمها الفنان «ربين» معروضة فى بطرسبرج فكان المئات من المعجبين يمرون بها وقد زينها الشعب بالزهور من كل جانب.

وتدخلت الحكومة فأزالت الصورة واستبعدت كتبه من المكتبات فلم يأبه تولستوى بها..

إن الكاتب أكبر وأبقى

لقد كتب تولستوى رسالة إلى القيصر يندد فيها بالأوتوقراطية والعقوبة البدنية وتحديه لمشاعر الشعب الروسى.

ولم يستطع القيصر أن ينال منه لما بلغه تولستوى من مكانة عند أمته. لقد فزع تشيكوف عندما اشتد المرض على تولستوى حتى كتب إلى أصدقائه يقول:

(إنى أخاف موت تولستوى، ذلك أنه إذا مات أحدث موته فراغا عظيما فى حياتى، فإنى لم أحب إنسانا قط كما أحببته ولست مؤمنا ولكنى أرى عقيدته أقرب العقائد إلى قلبى، وفضلا عن ذلك فإن وجود تولستوى فى دنيا الأدب يجعل من اليسير ومن الممتع أن يكون الإنسان كاتبا حتى ولو تفطن المرء إلى أنه لم يفعل شيئا وأنه ليس بفاعل، فليس ذلك بالخطب الجلل طالما أن تولستوى يصنع ما يغنى عن الجميع، وتحقق مؤلفاته الآمال التى ترجى من الأدب وتنحى عنه كل غث من الكلام وكل فاسد من الذوق فتبعد عنه كل ادعاء كاذب وسوف يحفظ سلطانه للأدب مستواه العالى، وبغيره نرى الأدباء قطيعا بغير راع، والأدب خليطا لا تقع فيه على شىء).

ولم يخفت ايمان تولستوى بمبدئه ورسالته على ارتفاع السن ووطأة المرض فلم يقر الحرب الروسية اليابانية وأعلن سنة ١٩٠٤ سخطه عليها.

ونشر سنة ١٩٠٥ مقالة بعنوان (الحل الوحيد) حالت الحكومة دون نشرها.

ولم يقر تولستوى ثورات سنة ١٩٠٥ لأنها قامت على العنف.

وإننا لنعجب لتولستوى الذى آلمته زوجته وأثارت غيرته إلى الحد الذى تستضيف فيه صديقها فى بيته، أن يأسى لمرضها!!

لم تقعده الآلام الجسدية والمعنوية عن المقاومة. لقد هاله ما يفعل «ستوليين» بالأحرار من عسف وقصف فكتب مقاله بعنوان (لا أطيق أن أظل صامتا).

وقد ختم تولستوى هذه المقالة بقوله:

(لا أستطيع أن أعيش وأنا على علم أن ذلك يقع حولى.. إما أن يوضع لتلك الأعمال الوحشية، وإما أن أوضع فى السجن بعيداً عنها أو يضعونى على المشنقة لأهبط بثقلى معلقا فى ملحفتى التى تدور حول حنجرتى العجوز فألقى مصرع أولئك الذين يقتلون بغير حساب).

ولقد عظم أثر صيحته فى نفوس الناس جميعا وخافها الطغاة فصادروها.

يقول المؤلف: (ذهب لتولستوى من الصيت مالم يذهب مثله لرجل غيره فى عصره. كانت ترد إليه فى شخوخته مئات الرسائل من أنحاء العالم كما كان يزوره الأعلام من انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا بل من أمريكا والهند واليابان. وكثيرا ماكتب إليه زعماء القلم من أمثال «شو» و«رومان رولان» و«ويلز». وكثيرا ماهبط «ياسانيا» أنماط من الناس مصورين وصحفيين ومثالين، وصناع وتجار يطلبون لبضائعهم الرواج بتقديم بعضها إلى تولستوى وكتابة اسمه عليها.

ومن زائريه فتاة خيرها أبوها إن هى نجحت فى الامتحان بين ساعة ذهبية أو دراجة أو زيارة تولستوى فآثرت زيارة تولستوى.

وفى صباح عيده الثمانين، تقاطرت الوفود إلى داره على صورة لم يعرف لها مثيل من قبل... وكان بينهم وفود من الدول الأوروبية الكبرى ومن أمريكا ومن الهند ومن اليابان.

وتلقى فى هذا الصباح وحده ألفى برقية من روسيا ومن أنحاء الدنيا بينها برقيات من أكابر الكتاب وأكداسا من الرسائل. والرجل وادع فى داره، ينظر الألوف إلى محياه المغضن ولحيته البيضاء ويديه المعروقتين وثيابه الريفية وينصتون إلى ما يقوله وقد عقد البهر ألسنتهم ثم ينصرفون وفى نفوسهم أعظم السرور لأنهم رأوا «تولستوى»..

تولستوى الذى نهض من فراشه فى اليوم التالى يكرر ما يفعله كل صباح أى يلعب محركا أعضاءه بعض الوقت على قدر ما تطيق شيخوخته ثم يكنس حجرته بيده ويصلح ما تشعث من

فراشه المتواضع فإنه خادم نفسه ثم يغتسل ويرتدى ملابسه، ويذهب إلى حجرة الطعام فيصيب منه قليلا ويشرب الشاى، ويتحدث بعض الوقت إلى من حوله.

وفى الظهيرة يركب فرسا هادئه إن أحس فى نفسه المقدرة أو يمشى على قدميه ويستغرق فى مشاهد الطبيعة التى عشقها ولا يزال لعينيه نفاذهما إلى أعماق الأشياء.

كانت سنة ١٩١٠ آخر سنى تولستوى فى هذه الحياة وفى هذه السنة لقى تولستوى من العذاب على يد زوجته ما جعل بيته جحيما لا يطاق.

وفى ذات صباح باكر

تسلل تولستوى إلى حظيرة الخيل فأيقظ أحد السائسين وسائق العربة وتعثر فى الظلام فوقع وفقد قبعته.

ركب العربة ومعه طبيبه وترك كتابا لزوجته جاء فيه:

(إنى أهرب من الدنيا لأقضى أيامى الأخيرة فى هدوء وعزلة).

ووقف وطبيبه بالمحطة ساعة ينتظران القطار.. وكان قلقا مخافة أن تدركه أمرأته ولكنها لم تعلم بقراره إلا فى الساعة الحادية عشرة.

واستقر به المقام فى «رستوف» وهو يظن أن لم يعلم فراره أحد، ولكن صحف روسيا جميعا أذاعت نبأ هجرته. فغادر رستوف إلى أستابوفو دون قصد إذ اضطر إلى الالتجاء إليها أثناء الرحلة عندما داهمه المرض فى الطريق.

وغدت استابوفو متجه قلوب الملايين فى روسيا وأوربا وأمريكا وأسرع إليها عدد كبير من رجال الصحافة والمصورين ورجال السينما وصارت ترسل منها البرقيات تباعا عن حال المريض المرموق إلى صحف العالم كلها.

وقد بلغ ما أرسل من هذه المحطة الصغيرة فى سبعة أيام اثنين وثمانين وألف برقية.

لقد كان القادمون ينامون فى عربات القطر التى تقلهم.

وهكذا لم يقض تولستوى أيامه، الأخيرة فى عزلة كما أراد بل قضاها والدنيا كلها حوله وإن

لم يدر ما يدور خارج حجرته المتواضعة فى هذه القرية الصغيرة التى ذاع اسمها فى العالم كله.

واشتد المرض عليه.. وفى غيبوبته صاح قائلا (ولكن الفلاحين.. كيف يموت الفلاحون؟).

وفى الثامن من نوفمبر أبرق المراسلون إلى صحف العالم أن تولستوى قد مات. وخرجت روسيا لوداعه فمنعت الحكومة القطارات الخاصة ولكن موكب الجنازة امتد إلى أكثر من ميل..

وتحت غصن أخضر دفن.

غصن لقنه أخوه، صغيرا أنه رمز الـ.لام والحب.

وللسلام والحب وهب تولستوى حياته.

وفى سلام وحب ودع تولستوى الحياة.

obeikandl.com